قراءة في مداولات مؤتمرين حول بلاد السودان

The central Bilad Al-Sudan Tradition & Adaptation

كان معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية في سبعينيات القرن المنصرم ، وفي إطار جهود العميد المؤسس بروفيسور يوسف فضل ، جهودا كبيرة في نشر المعرفة العلمية والتاريخية بالسودان وجواره ، وبرز المعهد كنواة باسم شعبه أبحاث السودان ثم تطور ليصبح معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية ، ولعل التسمية مستمدة جزئيا من معهد الدراسات الإفريقية والشرقية التابع لجامعة لندن ، وبالمعهد ثلاثة شعب ، وهي شعبة الدراسات الإفريقية والآسيوية والفلكلور والألسن أو اللغات ، ابتدر المعهد مشروعا في مسح اللغات السودانية ، وليت المعهد أبقي على شعبة الدراسات السودانية، علما بأن هناك مئات من رسائل الدكتوراه والماجستير تمت عن السودان – ولكن كذلك كان يجب ألا يستغنى المعهد عن شعبة متخصصة في الشأن السوداني – والآن فعل ذات الشيء معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة ، حيث أنشأ شعبة للدراسات السودانية والسودان أحق بهذه الشعبة – لتتناول قضايا السلم والحرب والجفاف والتصحر والمياه وأبحاث مياه النيل وخصوصية الإنسان السوداني وتاريخه وتشكله العقلي والروحي ألخ ..

ونعود للمؤتمر الأول للدراسات السودانية تحت عنوان Sudan in Africa ونشرت مداولاته في طبعات ثلاث ، وللأسف لايوجد ولا بحث باللغة العربية وتمت كل المداولات باللغة الإنجليزية وصدر كتاب المداولات بإشراف بروفيسور يوسف فضل واحتوي على عشرين بحثا ، دارت حول تاريخ البحث في اللسانيات السودانية ومستقبلها ، ووضعية ثقافة نبتة المروية وأثرها على السودان وإفريقيا ، وبحثين عن العلاقات السودانية الإثيوبية قديما – ومقالات حول كيفية تقبل الافارقة للإسلام وأهمية طرق السودان القديمة ومقالة طريفة مستفزة تقارن بين لا معقولية المهدية وحركات الخلاص المسيحية والماركسية وأثر العامل السوداني في وسط إفريقيا وشرقها – كما ركزت مقالات حول حاضر السودان وبحوث علم الإنسان ، وقضايا التلبس بالجن والزار وقضايا الهوية والإستعراب ومقالة للمرحوم المزروعي حول ازدواجية الهامشية السودانية كما تطرقت الخاتمة للإدارة الأهلية في السودان ومقارنة بين أحكام العرف والشريعة .

بما أن المؤتمر كنز من المعلومات من الصعب تغطيته ولكن يمكن الإشارة إلى بعض وارداته عسى أن يفتح ذلك عقول الباحثين ويؤدي إلى انتباههم إلى هذه المصادر المعرفية التي تمثل زادا للإستلهام والإضافة والحذف ، فمثلا د. هكوك Haycock يرى وحدة في الحضارة السودانية النبتية / المروية تبدأ من 1820 قبل الميلاد حتى 720 ق . م ويشمل ذلك

عصر موسى ثم داود وسليمان عصر التوسع شمالا واحتلال مصر على يد بعانخي وترهاقا ، ومملكة كوشي الثانية (كبوشية – مروي) 720 ق م / 656 ق م والكوشية ، المروية الثالثة 650 ق . م / 570 ق .م وان الحضارة المروية في جوهرها سودانية وإن تأثرت في بعض جوانبها بالحضارة المصرية ، وأن ما يدل على أن جوهرها سوداني ، اتخاذها للأسد والنيل عناوين فنية ورمزية لشخصية الدولة ، وهذه لاتوجد في الحضارة المصرية ، وكذلك تصاوير الابقار ذات القرون أساس المرعي السوداني بالإضافة إلى السهم والنشاب "رماة الحدق" حتى الفتح العربي ، وأن الشايقية حملوا تراث رماة الحدق حتى الدخول التركي 1820 حينما استبدلوه بالسلاح الناري – وإن حضارة مروي حضارة إفريقية على أرض إفريقية ووسط جمهور إفريقي بلغة ملوك مروي وأهدي ملك كوش سفراء قمبيز ملك فارس قوس ضخم ليحملوه إلى ملكهم قائلا : إن استطعتم أن تصنعوا قوسا قويا كهذا فهنيئا لكم غزو مملكة كوش.

وتشير البحوث إلى التغييرات الدينية للهوية السودانية وتقلبات الهوية السودانية بين الإثنية والدينية والعلمانية، وما تزال الحضارة النوبية في شمال السودان شاخصة في معمار البيوت ، والزخارف والكنائس القديمة ، مع وجود الحرف الهليني والقفطي ، إلا أن المادة المكتوبة نوبية ، وكذلك التصوير الجصي الذي ظل متواصلا حتى القرن الثاني عشر الميلادي واستعراب السودانيين واسلامهم ، وتم اكتشاف مقبرة في إبريم مع وثيقة مكتوبة بالحرفين العربي والقبطي تعود لعام 1372م .

ويمكن كذلك الإستعانة بالمصادر الإثيوبية في تحسين الفهم بتاريخ السودان ، حيث تتكلم هذه المصادر عن الفونج وسنار وملك الفونج وملك سنار ومصطلح بيلوي Belew والذي يستخدم أحيانا للإشارة لجنود ملك سنار ، كما ترد أسماء سواكن ، تاكا ، تيره ، أبورملة ، برتي ، فازوغلي، ويتكلم خطاب تكلا ميماوت الثاني 1706 / 1708 للملك بادي الأحمر عن العلاقات الودية بين من سبقوهم .

في نهايات عام 1606 أطاح الملك عدلان بقريبه الملك عبدالقادر أونسة وهرب عبدالقادر إلى إثيوبيا ، حيث احتضنه الملك سينيوس Suniyoz وجعله ملكا على الشلقةShelga – وهي منطقة حاكمة تمر بها القوافل الإثيوبية / السنارية ، ولكن خليفته عدلان بادي الأول (1611–1605) قام بغزو إثيوبيا تحت قيادة نايل حتى منطقة دمبايا Dembiya وخلف بادي الأول رباط الذي اعتقل المطران الإثيوبي Yisjaa الذي كان في طريقه لإسكندرية في الحبس ، مما أدى إلى فراغ روحي إثيوبي دفع المك سنيوس لإعتناق المذهب الروماني مما أدى إلى اشتباكات وحروب وصل فيها الجند الإثيوبي إلى منطقة عطبرة ويذكر بونسيه

Poncet إنه عبر عن طريق سنار ومعه الحاج على من حاشية الملك الإثيوبي في طريقهم إلى اياسو حاكم إثيوبيا عام 1698 .

وأطلت نذر الحرب الإثيوبية / السنارية حينما أرسل الملك الفرنسي لويس الرابع عشر رسوله دي رولDu Rowle إلى إثيوبيا عام 1705 فقتله ملك الفونج وسلبه ولحسن حظ الفونج تأخرت الحرب لإضطرابات إثيوبية نتيجة لقتل الإمبراطور الجديد تكلا لوالده واعتلائه العرش ولم يك في وضع الثأر من ملك الفونج ، وتأخرت الحرب إلى حين اعتلاء العرش إياسو الثاني (1730-1755) والذي شن اربع غزوات ضد الفونج (1741 – 1742 – 43-44 – ولكن الاخيرة كانت كارثية وهزم وكاد أن يقع في الأسر – مما رفع وضعية ملك سنار ووضعية سنار في العالم الإسلامي خصوصا وسط علماء الأزهر وعلماء العالم الإسلامي – واستمرت العلاقات اودية حتى حروب المهدية مع يوحنا ملك الحبشة عام 1889 وكان ملوك الحبشة أقرب إلى روح التفاهم مع قادة الوضع المهدوي .

أما مقالة توماس هودجكن Thomas Hodjein عن المهدية وحركات اللامعقول والخلاص باسم المهدوية والعيسوية والماركسية والجامع المشترك هو محاولة فهم الخلاص في إطار محاربة الأوضاع القائمة وتنزيل الجنة من عليائها إلى عالم الشهادة ، بنزول المخلص أو وكيله مهدويا كان أو مسيحيا أو علمانيا ، مع التوقعات العالية لكسبه .

وتقوم مشروعية المخلص على رؤيته الذاتية يقظة أو مناما أو تحليلا للجدلية، ورفضه للسلطة القائمة ، دينية أو دنيوية ، لمصلحة مشروعية مشروعه ، وأنه وحده الموصول بالرب والحضرة أو فهم الديالتيك ، وقادر على تجاوز الوضع ، ومفوض للإصلاح – والكلام عن الظروف الموضوعية ونضج الثورة ، وعلامات الساعة من هرج ومرج وسفك دماء وعند الجدليين وأصحاب المادية التاريخية المأزومية والشروط الموضوعية للعقل الثوري.

والأهداف مشتركة للحركات المهدوية والخلاص الماركسي ذو النزعة العالمية والإنسانية.

أما الكتاب الثاني فهو مداولات المؤتمر الثالث عن مركزية بلاد السودان: التقاليد والتكيف The Cannel Bilad Al Sudan Traditional & Adaptation

وأختار المؤتمر تعريفا جغرافيا تشمل حوض تشاد مكوناته بما فيها انهار النيجر وجنود تشاد وشمال كمرون وشمال نيجيريا ودارفور ، ورمي المؤتمر للنظر فيما تتميز به شخصية هذه المنطقة وما طرأ عليها من تغيرا ككارثة الجفاف وتأثيراتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية،مما يستوجب النظر في الأدبيات والمباحث المتعلقة بالمنطقة وتنسيق جهود علمائها ومفكريها والمفكرين المهتمين بها مما قد مكن من إيجاد رؤية مشتركة ومدخل على قضايا المنطقة .

يحتوي الكتاب على عشرين ورقة من الأوراق التي قدمت للمؤتمر ، الأوراق التسع الأولي، تتصدرها ورقتي البروفيسور يوسف فضل والأستاذ محمد أحمد الحاج ويشتملان على خلاصة الأوراق التي قدمت للمؤتمر ، والتي دار قسمها الأول على كارثة التصحر والجفاف وتأثيراتهما على منطقة الساحل حتى دارفور وماذا يعني الزحف الصحراوي على الحياة والزراع والرعاة وكيف يشعل الزحف الصحراوي والجفاف الصراعات في المنطقة ويزيد في اللامساواة ، وعلاقة اللامساواة في الارياف مع الزحف الصحراوي وكيفية الإستجابة لضغوط التصحر والجفاف وتجميع الموارد وعمل الخطط لمجابهة التصحر في شمال دارفور .

أما عن الملف الثاني للمؤتمر فيدور حو التاريخ السياسي والاقتصادي وانتقال السلطة من الرحل إلى غيرهم " غير الرحل " في الحزام السوداني ، ومقالة عن سلطنة الفور والتجارة السالكة للمسافات البعيدة ومقالة طريقة عن رحلة الشيخ أحمد اليماني وهو من مواليد حلفاية الملوك 1630 ثم سافر إلى بلاد السودان ثم فاس ، وكذلك الصلة بين الارض والجاه في دارفور ويكفي أن كاتبها هو د.O'Fahey الحجة في تاريخ دافور ، والمراجعات حول المهدية والهجرة والخلاص والمقالة الخاتمة للملف بقلم محمد هاشم عوض وهو عن التراث المشترك لأهل الحزام السوداني أمن لون وعرق وبيئة وظروف جغرافية وثقافة إسلامية .

وظل سودان وادي النيل ، يؤثر باستمرار في بلاد السودان حيث تأثر عمر الفوتي في ثورته بثقافة وادي النيل، وعبدالكريم صابون مؤسس سلطنة وداي ينحدر من سودان وادي النيل ، ورابح فضل الله احتضنته المنطقة وأصبح حاكما لإمبراطورية ، وكذلك الأمير حياتو بن سعيد رفع راية أنه وكيل المهدية في المنطقة ومن ثم وريث لعثمان دان فودي ولكن صراعات السلطة انتهت به مقتولا على يد فضل الله ابن رابح فضل الله ، حتى بعد أن زوجه رابح من أبنته واتخذه حليفا – ولعل هذا الأمر ما يزال ساريا ، فحركة تحرير تشاد برزت من السودان ومعظم قادة تشاد جاؤوا عبر السودان ، والهجرات السياسية من بلاد السودان ماتزال تعمل عملها ماضيا وحاضرا ، ومع إن الإستعمار قام ببلقنة بلاد السودان وحولها إلى سياساته الثقافية المختلفة (فرانكفونة وانجلوفونية) وإلى جزر منعزلة ، حيث أصبح لكل نخبة لسان إما انجليزي أو فرنسي ونهج كنسي .

ومهما تعرضت له الدراسة ، سلطة سكان الفور على الارض الحواكير – وتشير وثائق الارض منذ السلطان موسى السلطان الثاني في سلسلة ملاك الفور – وابنه أحمد أبكر (1700 – 1720) الذي وهب لأبنه محمد دوارا أراضي جبل مرة والفقيه الحاج زيدان في

شوبا جنوب غرب الفاشر ، بينما منح السلطات محمد دوارا (1720 – 1730) الارض في الشمال الشرقي لدارفور لفقهاء أولاد جابر وسط الزيادية (ص 264 مقالة O'Fahey)

والخلاصة أن المؤتمر الذي عقد قبل قرابة الأربعين عاما كأنما يحكي قضايا المنطقة اليوم من صراعات وحروب ودماء ومن الأوراق المتميزة ورقة صالح العريفي (ص 131) التي تناقش أمر اعداد استراتيجية تنمية لحزام شبه الصحراء في غرب السودان ومعه خريطة تفصيلية لأمر التنمية والطرق في دارفور ، والعبرة أن في دور العلم السودانية كنوز من الدراسات ومن وقف عليها فقد وقف على خير كثير والله أعلم .

أ.د. حسن مكي محمد أحمد